بين العلم والادب

أول رقي يتوق اليه الانسان لحق، فوق الرقي المادي، هو لرقي العقلي. ذلك ان العقل ـور لـلانسـان، ولـذلـك وجب ن يتقدم نبراسه امام المرء، يتمكن من السير في سبيل لرقي الحقيقي.

ومـا دام الـعقل - بمـا فيه من العلم- نور، فمن شأنه ان يرشد صاحبه الـى مصيره، والـغـاية المتوخاة من حياته ويعبد امامه الطرق المؤدية الى غيره من التقدمات.

فـاذا كـان الامـر كذلك، نقول: فـي مـعزل عن التقدم الادبي، ليس من تقدم حقيقي فـي الـعلـم. الـتـقـدم العقلي هـو السير فـي سبيل الحق، والتقدم الادبي هو السير في سبيل الخير. والحال ان من اراد ان يقطع شوطاً شاسعاً فـي طريق الحـق، تحتم عليه ان يبلغ حداً قصياً في جادة الخير. ومـن شـأن العقل ان لا يتحد بالحق اتحاداً متيناً إلا اذا كانت الارادة متصلة بالخير اتصالاً محكماً. وكلما ازداد فـي الـنـفس البشرية تسلط الضلال والشر، تضاءل نـور الحـق وتـلاشـت قوى الخير. ومتى زالت الاستقامة من الاعمـال، بـادت الاصابة في احكام العقل. وعليه، في وسعنا ان نقول نظرياً، بلا مغالاة، ان الانسان لا يستطيع ان يكون عالماً حقيقياً، إن لم يكن فاضلاً تقياً.

ومـردّ ذلـك الـى ان العلم الكامل قائم على اركان معرفة الحـق ومحبة الخير. ومهما كان نبوغ المرء فائقاً عجيباً، فان لم يكن هو في شيء من الصلاح، فلا قدرة له على ان يصبح رجل حق.

نطلق القول نظرياً، لاننا لا ندعي ان الرجل الخالي من الفضل عاجز عن ادراك اي شيء. فقد يمكن بلا فضيلة، التعلم واكتساب شيء من الحقائق. لكن، ما هذه الحقائق؟ هي حقائق مادية، مشتتة، لا رابـط يربطها. امـا الحقيقة الثابتة المطلقة، الصادرة عن رب الحـق، ومصدر كل حق، فهو عطل منها، وقصي عن الوقوف عليها.

اجل اننا نشاهد في العلم - قل العلم المعرى من كل فضيلة - رقياً ملموساً. لكن ما هذا التقدم العلمي في معزل عن التقدم في الاخلاق المحمودة، ومـا عملـه؟ عمله عمل العلم المتجسمة فيه روح الشر، فلا ينشئ الا ما تنشئ هذه الروح. ذلك ان ابليس شرير ومطبوع على الشر. ويا لشره هذا!.

فالعلم او النور الطبيعي فيه يضحي قوة لاصدار الظلام. وهذا مثال مطابق كل المطابقة لرقي العلم في وسط انحطاط الاخـلاق، لان صـانـع الشر يبغض الـنـور، ولا لـذة لـه إلا في اخفاء الحق تحت ظلمات الضلال المدلهمة، وما يقال في هـذا الشأن في الافـراد يطلق عـلـى الجـمـاعـات. فـاذا كان الامر كذلك، ماذا يكون مصير العلوم؟

ان هـذه الـعلـوم تحيد عن سبيل الـصـواب، وتبتعد عن غايتها. فعوض ان تكون محجة هـدايـة، تصبح بيداء غواية. الفلسفة، علم الحق، تستخدم وسيلة ممكنة للشك والافكار، درس الطبيعة قد يمحو درس النفس، معرفة العالم قد تحجب معرفة الخالق، علم الماديات قد يخنق علم الروحيات، التاريخ عينه، سجل الحق ومقرره، قد يمسي آلة للكذب.

نرى ابحاثاً سائرة في سبيل الضلال. لذا، العياذ بالله من علـمـاء خـالـين مـن الفضيلة، ومفكرين عـادمـي الـذمـة، لان الشرير الجاهل لا يكون الا شريراً. اما الشرير العالم فهو ضربة، بل نقمة على البشرية، وهـو عـدو الـحـق، بـل هـو قوة شديدة لنشر الضلال.

د. جهاد النعمان